مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ٦: ١٣–٢٠)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ لمَّا وعدَ إبرهيمَ إذ لم يُمكن أن يُقسِمَ بما هو أعظمُ منه أقسمَ بنفسه* قائلاً لأُباركنَّكَ بركةً وأُكثِّرنَّكَ تكثيراً* وذاك إذ تأنَّى نال الموعِدَ* وإنَّما الناسُ يُقسِمونَ بما هو أعظمُ منهم وتنقضي كلُّ مشاجرةٍ بينهم بالقَسَمِ للتثبيت* فلذلك لمَّا شاء اللهُ أن يزيدَ ورثةَ الموعدِ بياناً لعدمِ تحوُّلِ عزمِه توسَّطَ بالقسم* حتى نحصلَ بأمرين لا يتحوَّلان ولا يمكنُ أن يُخلفَ اللهُ فيهما على تعزيةٍ قويَّةٍ نحن الذينَ التجأنا إلى التمسُّكِ بالرجاءِ الموضوعِ أمامنا* الذي هو لنا كمِرساةٍ للنفسِ أمينةٍ راسِخةٍ تدخلُ إلى داخلِ الحجاب* حيثُ دخلَ يسوعُ كسابقٍ لنا وقد صار على رُتبةِ ملكيصادق رئيسَ كهنةٍ إلى الأبد.

الإيمان

يسبق حَدَث الشفاء المتلو علينا في هذا اليوم تجلّي الرب يسوع أمام أصفيائه بنور مجده الإلهي، ومؤيَداً بشهادة الآب. السياق الإنجيلي واحد ونحن نشير هنا إلى حَدَث التجلّي لأجل ما له من ارتباط وثيق بما سوف يليه، وشفاء الإبن المصروع هنا بالذات يتجاوز برمزيته مجرّد شفاء إنسان ما في زمن ما. فتجلّي السيد ما كان لمجرّد كشف ألوهته لثلاثة من تلاميذه وحسب، بل لأجل إعلان رسالة الكلمة الأزلي في هذا العالم، مخلّصاً لخليقته من أسر الشرير القابض عليها حتى آنذاك. في سِفر الخروج (٣٤: ٢٩– ٣٠) صورة لما يحدث الآن، حين ينزل موسى من جبل سيناء حاملاً لشعب إسرائيل رسالة الخلاص من عبودية فرعون، يقابلها هنا مشهد الرب يسوع محرِّراً مَن كان أسير الشيطان «منذ صباه»، فور نزوله من جبل التجلّي. الشاب المصروع إذاً ليس إلاّ رمزاً للخليقة التي «منذ صباها»، أي منذ بداياتها الأولى، وقعت في أسر الخطيئة وصارت لها مستعبَدة. في المشهد الإنجيلي ينزل الرب يسوع من جبل تجلّيه إلى «جمع كثير» يحيط به الكتبة، وفي رمزية المشهد نزول الكلمة ابن الله من محل مجده الإلهي إلى الخليقة التي تبحث عن خلاصها بين سطور الشريعة.

يأتي إلى السيد إنسان حاملاً ابنه المريض وساجداً بألم وخيبة، يؤلمه عذاب ابنه، ويحبطه فشل المحاولات إزاء هذا «الروح الأبكم». ردة فعل يسوع الأولى، وكأن فيها شيئاً من غضب، تشمل والد الفتى الضعيف الإيمان والتلاميذ الذين ما استطاعوا الشفاء والكتبة العالقين في مماحكاتهم النظرية الفارغة، إلى الجمع الذي علق فيها معهم. «إلى متى أكون معكم، حتى متى أحتملكم»، وصبر الرب وطول أناته لا حدّ لهما. إنما القصة قصة إيمان، ولطالما وبّخ أنبياءُ العهد القديم العبرانيين على فسادهم وتراخيهم في الإيمان، بالرغم من مبادرات الرب الخلاصية التي ما انقطعت. لعل هذا ما أراد يسوع أن يذكّر به سامعيه عندما بادرهم بكلماته هذه العاتبة، وإن ما توقف عندها إذ انتقل للتو إلى إعانة الشاب المريض مضيفاً «هلم به إليّ».

أمام يسوع، يُصاب الصبي بنوبة

العدد ١١/ ٢٠١٠

الأحد ١٤ آذار

الأحد الرابع من الصوم

(أحد البار يوحنا السلّمي)

تذكار أبينا البار بنديكتس

اللحن السابع

إنجيل السَحَر السابع

الإنجيل

(مرقس ٩: ١٧–٣١)

في ذلك الزمان دنا إلى يسوعَ إنسانٌ وسجد له قائلاً يا معلّمُ قد أتيتُك بابني به روحٌ أبكم* وحيثما أخذهُ يصرعُه فيُزبِدُ ويصرفُ بأسنانه ويَيبس. وقد سألتُ تلاميذَك أن يُخرجوهُ فلم يقدروا* فأجابه قائلاً أيُّها الجيلُ الغيرُ المؤمن إلى متى أكون عندكم حتَّى متى أحتملُكم. هلمَّ به إليَّ* فأتَوهُ به. فلمَّا رآهُ للوقت صرعهُ الروحُ فسقط على الأرض يتمرَّغُ ويُزبِدُ* فسأل أباهُ منذ كم من الزمان أصابه هذا* فقال منذ صباهُ، وكثيراً ما ألقاهُ في النار وفي المياه ليُهلِكَهُ. لكن إن استطعتَ شيئاً فتحنَّن علينا وأغِثنا* فقال له يسوعُ إن استطعت أن تؤمنَ فكلُّ شيءٍ مُستطاعٌ للمؤمن* فصاحَ أبو الصبيّ مِن ساعَتِه بدموعٍ وقال إنّي أؤمِنُ يا سيّد. فأغِث عدم إيماني* فلمَّا رأى يسوعُ أنَّ الجمعَ يتبادرون إليه انتهر الروحَ النجسَ قائلاً له أيها الروحُ الأبكمُ الأصمُّ أنا آمرُك أن اخرُج منه ولا تعُد تدخلُ فيهِ* فصرخ وخبطهُ كثيراً

جديدة «يتمرغ ويزبد». في إيراد هذا التفصيل هنا إشارة إلى ثورة الشيطان في حضرة السيد ثورة النزاع الأخير. الخطيئة تثور كلما حاول المؤمن قمعها بالتوبة، والتوبة تجلٍّ من تجليات روح الرب فينا. عندئذ يستفسر يسوع من الأب عن زمن مرض ابنه، وهنا أيضاً محطة هامة. الرب لا يسأل ليعرف، وهو العارف بكل شيء، بل ليعرف سامعو البشارة في كل زمان، وعن طريق جواب الأب، أن الجنس البشري يعاني «منذ صباه» من آلام استسلامه للخطيئة ونتائجه الرهيبة.

بعد استكماله وصف ما كان ابنه يقاسيه، يطلب الأب معونة يسوع بشيء من الشك لعله آت من صعوبة ما تبدو عليه حالة الفتى المصروع. هنا يبان لنا الأب كمثل مَنْ، وإزاء حالة مستعصية، يسعى في شتى الاتجاهات. التعليم الذي يحمله إلينا الإنجيل في هذه الرواية يبدأ من هنا: الرب يسوع يقلب اتجاه المحادثة، وعلى السؤال يجيب بسؤال. ما عاد المطروح قدرة السيد على الشفاء، بل التحدّي الذي يمثّله الإيمان، في أحلك الظروف وأقساها. وكأننا بالسيد المبارك يقول للأب ان شفاء ابنك في يديك. هذا هو معنى إشكالية الإيمان. في كل عجائب الشفاء الواردة في الإنجيل يضع السيد الإيمان أولاً. فهو يغبّط عَظَمَة الإيمان أحياناً كمع قائد المئة (متى ٨: ٧–١٠) والنازفة الدم (متى ٩: ٢٠–٢٢)، يستخرجه إلى العلن كمع أعمى أريحا (مرقس ١٠: ٥١) أو يستحثّه بما يشابه القسوة أحياناً كمع الكنعانية في تخوم صور وصيدا (متى ١٥: ٢١–٢٨). الرب لا يبادر نحونا ليستعرض قدراته، وهو القدير بالمطلق، بل لأجل الخلاص، والخلاص يلزمه إيمان.

كلام السيد فعل في والد الفتى فعلاً مزدوجاً: «أؤمن يا سيد فأغِث عدم إيماني». وكأننا به في اعترافه هذا يخطو الخطوة الأولى نحو الإيمان اليقين الواقعي، وليس أكثر واقعية من أن يعي الإنسان حقيقته. «كل شيء مستطاع للمؤمن»، يجيب السيد. هل بات الأب هنا هو المريض الحقيقي؟ إنه كذلك. فشفاء المريض أسهل على الرب، إذ إنه له المجد لا يفرض الإيمان على خليقته فرضاً. يعلّمنا مجاهدو الكنيسة الكبار أن أدهى حبائل الشيطان هي «العمى الروحي»، الذي لا يعود المصاب به واعياً لبؤس حاله فلا يشتهي التغيير. بمعنى آخر تخبو جذوة التوبة فيه. يرى بعض شرّاح الكتاب المقدس أن الآية العظمى في هذا المقطع الإنجيلي هي اقتبال الأب الإيمان، لا شفاء الفتى من صرعه. أن يعي الإنسان قلة إيمانه هو بلا ريب الخطوة الأولى السديدة على طريق الإيمان الكياني العميق. هذا الوعي لا يكون بلا شيء من استنارة، والإستنارة معطاة من الله، ولكنّه لا يتحقق بلا إرادة القبول. الرب أسلف فأعطى، أما أن تقبل أو لا تقبل فهذا بيدك. هذا ما يخلص إليه الإنجيل.

إذا ما أردنا الإشارة، ولو بأقل ما يمكن، إلى كتاب «السلّم إلى الله»، وهذا الأحد مخصّص في الكنيسة لتذكار القديس يوحنا السلّمي كاتبه، نرى إشكالية الإيمان هذه ترافق المؤمن المجاهد في كافة مراحل حياته حتى الخلاص الأخير. لقد سمى القديس يوحنا مجموعة تعاليمه سلّماً، لأن السلّم

وخرج منه فصار كالميّتِ حتى قال كثيرون إنَّه قد مات* فأخذ يسوعُ بيده وأنهضه فقام* ولمَّا دخل بيتاً سأله تلاميذُه على انفرادٍ لماذا لم نستطع نحن أن نُخرجَهُ* فقال لهم إنَّ هذا الجنسَ لا يمكن أن يخرُجَ بشيءٍ إلاَّ بالصلاة والصوم* ولمَّا خرجوا من هناك اجتازوا في الجليل ولم يُرِد أن يدريَ أحدٌ* فإنَّه كان يعلّم تلاميذهُ ويقول لهم إنَّ ابنَ البشر يُسلمُ إلى أيدي الناس فيقتلونه وبعد أن يُقتلَ يقومُ في اليوم الثالث.

تأمل

عندما نكون ساهرين لا يستطيع الشيطان أن يؤذينا، لكنه يمكن أن ينفعنا ويزيد لنا الفضيلة حتى لو لم يرغب في ذلك. لاحظ ماذا يحدث عندما يأخذ أحد قصبةً وينفخ النار؛ في البداية يبدو كأنه يطفئها، لكنه في النهاية ليس فقط أنه لا يطفئها، بل يقوّيها أكثر.

من دون مشاكل، ومصائب، وأمراض، وأحزان، ماذا كان سيفعل الإنسان؟ كان سينصرف إلى الترف والسُكر، ويتمرّغ في الحمأة (طين أسود فاسد الرائحة) كخنزير، وينسى الله ووصاياه ترتقي بك إلى فوق، درجة درجة، تصعدها وعيناك إلى فوق. هذه السلّم إلى الله هي الإيمان، وجهدك في ارتقائها هو إرادتك.

فأخذ يسوع بيده وأنهضه فقام

في الأحد الماضي رفعنا الصليب وقلنا إنه علامة القيامة. وها نحن اليوم نسمع ان السيد يأخذ بيد الصبي المطروح كالميت وينهضه فيقوم. وفي نهاية النص يُعلن يسوع لتلاميذه صراحة أنه سيُقتل ولكنه في اليوم الثالث يقوم. ها نحن إذاً نستعدّ للقيامة فكيف يكون استعدادنا نحن المائتين للقيامة؟

في هذا الأحد الرابع من الصوم نتذكّر ناسكاً عاش في سيناء في القرن السابع وكتب كتاباً هو نتيجة خبرته النسكية وسماه «السلّم إلى الله». لن ندخل في سرد سيرة القديس يوحنا السلمي ولا في محتوى كتاباته ولكننا سنتوقف عند واحدة من قطع صلاة الغروب التي تتحدث عن هذا القديس: «أيها الأب البار يوحنا لما جنّحت العقل نحو الله بإيمان مقتّ التشويشات العالمية غير الثابتة واتخذت صليبك وتبعت المراقب الكل وبقوة الروح الإلهي عبّدت الجسد العسر الانقياد للعقل برياضات نسكيّة».

باختصار شديد هذه القطعة تقول إن يوحنا البار إنسان وضع لعقله أجنحة الإيمان ليستطيع الإرتقاء إلى الله، دون أن تحول التشوشات الدنيوية التي تحيط به، من إتمام سعيه. وهو إذ شعر بثقل جسده يمنعه من التحليق عالياً، وصعُب عليه تطويعه بمنطق العقل، اتخذ النسك طريقاً ليجعل من جسده الترابي الكثيف جسداً ملائكياً حتى لا تمنعه كثافة الجسد من العشرة الإلهية المرتجاة.

هذا القديس أطفأ شهوة الجسد بعد أن أسكت كل الإهتمامات الدنيوية التي تشغل باله، مركّزاً اهتمامه على معاينة مجد الله. هذا إنسان أمات الدنيويات لينهض قائماً مع المسيح في ملكوته. السؤال يطرح ذاته على كل منا نحن الذين نعيش في العالم: كيف نُزهر لله ونُثمر؟ كيف نرفع عقولنا وقلوبنا على أجنحة الروح إليه؟ هل أن القيامة تعني النساك فقط؟ كيف نموت مع المسيح لنحيا به ونقوم معه؟ وهل القيامة حَدَث خارجي غريب عنا؟ وهي إن كانت كذلك فما فائدتها؟

بالقيامة يُعيد المسيح الناهض من بين الأموات إلى آدم الجدّ الأول، وعبره إلى كل منا، بهاء الصورة الأولى. كيف كانت الصورة الأولى في البدء؟ في البدء، بانعطافة حنان فائق، شاء الله أن يكون الإنسان مشاركاً للمجد الإلهي. «جبلَ الربُّ الإله آدمَ تراباً من الأرض ونفخَ في أنفه نَسمةَ حياةٍ فصار آدمُ نفساً حيَّةً» (تك ٢: ٧). ماذا تعني هذه العبارة: فجَبَل الرب الإله الإنسان؟ وكيف نفهم عَظَمة هذا السرّ؟

أولى النقاط المضيئة على هذا السر هي التأكيد على أن الله ليس غريباً عن التراب. ليس غريباً عن المادة ولا شيء خارج عن سلطانه. هو خالق الطبيعة المادية وهو مقدّسها.

النقطة الثانية هي أن الله اقترب بوجهه من وجه الإنسان ونَفَخ في أنفه نسمة حياة. تصوّروا كيف كان تلاقي الوجهين؟ وجه الله يكاد يلامس وجه الإنسان. تصوّروا

المقدسة بالكامل. لكن الآن، فإنّ المشقات والخوف والأحزان والتجارب تجعله يسهر، كما أنها ستصير له مدرسةً للحكمة، ونادياً رياضياً للنفس.

ليست الأحزان والتجارب أسباباً للحزن إنما هي أسباب للفخر والفرح؛ فضلاً عن ذلك، فإنّ الله يرسل الأحزان بحكمة. كما أنّ عازف القيثارة لا يشدّ أوتار القيثارة كثيراً كي لا تنقطع، وكما أنه لا يُرخيها كثيراً أيضاً كي لا تفقد أداءها الصوتي، هكذا الله أيضاً لا يتركنا في سعادةٍ مستمرة ولا في حزنٍ دائم أيضاً، بل يهبنا فترات هدوءٍ وسكينة لكي نهدأ ونستريح، كما يرسل لنا أحياناً تجارب وأحزاناً، بتواتر أحياناً وبندرةٍ أحياناً أخرى، وهو يتأخر أحياناً كثيرة في إنقاذنا من المصائب. لماذا؟ لكي نفكر فيه ونقترب منه بلا انقطاع، ولكي نلجأ إليه هو ونطلب معونته؛ لذلك يسمح أيضاً بالأتعاب والأمراض والمصائب والمجاعات والمصاعب الأخرى. هكذا، عندما نبقى بالقرب من الله، نربح خلاصنا، وبفضل الأحزان الموقّتة نرث الحياة الأبدية.

القديس يوحنا الذهبي الفم

تبادل النظرات بين الخالق والمخلوق. تصوّروا هذا حاصلاً مع كل واحد منا. إن أمراً كهذا يفوق العقل والوصف ولا توجد كلمات لتعبّر عن عَظَمة اللحظة وفرادتها.

النقطة الثالثة هي أن الله لم ينفخ في أنف الإنسان نسمة حياة عادية، بل هي نسمة حياة من حياته التي لا تفنى. لقد نفخ الله في الإنسان شيئاً من ألوهته. بمعنى آخر لقد خلق الله آلهة صغيرة تشبهه، على صورته ومثاله. جعل الله من كل إنسان إلهاً على شبهه. فصار الإنسان إلهاً بفيض النعمة الإلهية في حين أن ألوهة الله موجودة في جوهره.

النقطة الرابعة هي أن الله الذي لا يحويه مكان تنازل في لحظة الخلق واسكن ألوهته في الجسد البشري. قَبِلَ لفرط تواضعه وتحننه أن يسكن التراب ليصبح التراب هيكلاً حياً لله.

النقطة الخامسة هي أن الله صار لصيقاً بالإنسان والإنسان صار عشير الله. صار الله يفرح لفرح الإنسان ويتألم لألمه، لذلك اقامه معه في الفردوس حتى تتوطّد، في مناخ حرّ، علاقة حب بين الخالق والمخلوق.

هذه بعض النقاط التي تفسّر كيف أن الإنسان مخلوق على صورة الله ومثاله. فماذا فعل الإنسان بنعمة الألوهة هذه؟ رماها وابتعد عنها. قال لخالقه: لقد خلقتني حرًّا ولذلك سوف أتغرّب عنك. سوف أختبئ منك. سوف أخجل من إسمك لا بل سوف أنكره أمام الناس. سوف أشوّه صورتك التي أعطيتني أياها. سوف أسيء إلى جسدي لأسيء إليك. سوف أسيء إلى نفسي لأدنس الألوهة التي نفختها فيّ.

عندها بكى الله حزناً وقال بلسان أشعياء النبي: «أتنسى المرأة مُرضعها فلا ترحم ابن بطنها ولكن لو أن هؤلاء نسين لا أنساك أنا يا شعبي». ومتى يدير المخلوق ظهره للخالق ويسلك سبلاً غير مستقيمة، يستمر الخالق باسطاً يده قائلاً: «بسطتُ يديَّ طولَ النهارِ إلى شعبٍ متمرِّدٍ... يجلس في القبورِ ويبيتُ في المدافنِ... يقول قِف عندك لا تدنُ مني لأني أقدَس منك. هؤلاء دخانٌ في أنفي نارٌ مُتَّقِدَةٌ كلَّ النهارِ» (أشعياء ٦٥: ٢-٥).

لم يكتفِ الإنسان بعصيان الله والإبتعاد عنه بل قتله مسمّراً إياه على الصليب. ولكن الله بصليبه وموته وقيامته أمات الموت ومحا آثار المعصية، معيداً صورة المخلوق الساقط إلى جمالها الأول. بَسَط الله يديه على الصليب ليضمنا إلى قلبه. وبقيامته من القبر أمسك بيديّ الجدّين الأولين مُنهضاً جنس البشر من سقطة الموت.

القيامة تعنينا بصورة شخصية لأنها لنفوسنا المخلّعة وأجسادنا المائتة حياة أبدية لا تفنى ولا يعتريها مساء. فلنجاهد بالصلاة والصوم، وكيوحنا السلّمي لنرفع بأجنحة الروح عقولنا وقلوبنا إلى الله لنلبس جمال الحلة الأولى ومجد ألوهته فينا، لأنه بموته تغلب على الموت ومنحنا حياة أبدية. إننا بذلك نؤمن يا رب فأغث قلة إيماننا.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb